﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرّعد: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعقيب الدَّعوى بالدَّليل مبيِّنٌ للعَجَبِ ومفصحٌ عن السَّبب

لمّا ذكر سبحانه عجيبَ إنكارِ المشركين للبعث، وما توعَّد الله الجاحدين لآياته بالهلاك إن أصرّوا عَلى كفرهم، وتكذيبهم بِما أُنْذِروا بِهِ مِنَ العَذابِ؛ عطف - على ذلك القولِ العجب الصّادر عن عقولِهم الخربَة، وقلوبهم المريضة - استعجالَ العذابِ، حيث أغلّوا عقولهم عن الاعتبار بمصارع الغابرين من المُكذِّبين بآيات الله، وطالبوا بتعجيل العقوبة بدلًا من طلب العافية، وذَلِكَ عَلى سبيل الاستِهزاءِ والاستخفاف؛ ظانّين أنَّه مجرَّد تَهْديد، ولا يَتَحَقَّقُ شَيْءٌ مِنهُ؛ وذا لفرط جهلهم بالخالق الجليل ﷻ؛ فإنَّه يُمهل، ولا يُهمل[1]، فالمناسبة بين الآيتيْن، هي ذكر الدَّليل بعد الدَّعوى، فذِكْر إنكارهم البعث دعوى، ودليلها استعجالهم العذاب، وكلا الأمرَيْن عجبٌ عُجابٌ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: العَجَلُ والعَجَلة: طَلَبُ الشَّيء وتَحَرّيه قبل وقته، وهو من السُّرعة خلاف البُطْء[2]، وأصل (العَجَل): "سَبْقٌ بتحصيل الشَّيء قبل وقته"[3].

واستعجلتُه: حَثَثْتُه، وأمَرْتُه أن يُعَجِّل في الأمر، والاستعجال

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/353، وابن عادل، اللُّباب: 11/253، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/284، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

والإعجال والتَّعَجُّل بمعنًى واحدٍ: الاستحثاث وطلب العَجَلة، واستعجل الرَّجلَ: حثَّه، وأمره أن يُعَجِّل في الأمر[1].

2) ﴿خَلَتْ﴾: خلا المكان والشَّيْء؛ إذا كان فارغًا لا يوجد فيه شيْءٌ ولا أحدٌ[2]، وأصلُهُ من (الخُلوِّ): وهو فراغ الحيِّز أو الظَّرف ممّا كان يشغله، أو من شأنه أن يشغله مع بقاء الحيِّز أو الظّرف متماسكًا[3].

والخُلوُّ يُستعمل في الزَّمان كما يُستعمل في المكان، ويكون في الزَّمان بمعنى المُضي والذَّهاب، يُقال: خلا الشَّيءُ: مضى، وذهب[4]، والقرون الخالية والأيام الخالية: هي القرون والأيام الماضية[5].

3) ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾: المُثُلات جمع مُثْلة، وهي العقوبة والتَّنكيل بالآخر[6]. و"النِّقمة تنزل بالإنسان، فيُجعَل مثالًا يرتدع به غيره"[7]، وأصله من (المَثَل)؛ وهو تشخُّص الشَّيْء قائمًا على هيئة أو صفات معينة، فالتَّمثيل بالمجرم عقوبة تُصيبه، فتُنصِّبه مثلًا وعِبرةً؛ لأنَّه إذا نُكِّل به؛ جُعل ذلك مثالًا لكلِّ مَن صنع مثله[8]، ومَثَل بالرَّجل يَمثُل به مَثْلًا ومُثْلةً، ومثَّل، كلاهما: نكَّل به، وهي المَثُلة والمُثْلة[9].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآية حال المشركين في منازعةِ ما تقتضيه الفطرةُ السَّليمة، والعقل السَّديد، فيطلبون من رسول الله ﷺ تعجيلَ العذاب بالبلاء والنِّقمة والعقوبة قبل الرَّخاء والنِّعمة والعافية،

الاستهزاء بالرُّسل وبما جاؤوا به سُنَّة الجاهلين في كلِّ زمان

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (مثل).
(7) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مثل).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).

وقد مضت من قبلهم في الأمم العاصية المُكذِّبةِ العقوباتُ والمُنكِّلاتُ، بين إغراق وخَسْف ومَسْخ، فلم يُشفقوا أنْ ينزل بهم مثلُ ما استأصل سابقيهم، وإنَّ ربَّك لذو ستر وعفو وصفح وتجاوز عن المشركين على فعلهم وكُفرهم؛ إذا آمنوا، وعن المُذنبين؛ إذا تابوا، فلا يُعاجِلُ أحدًا بالعقوبة، وإنَّه سبحانه - كذلك - لشديد العذاب للمُصرّين على الشِّرك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الرّعد: 5]؛ لأنَّ كلتا الجملتَيْن حكايةٌ لغريبِ أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد، فابتدأ بذِكرِ تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعثَ، ثمَّ عطَفَ عليه تكذيبَهم بوعيد الدُّنيا لتكذيبهم الرَّسولَ ﷺ[2].

الجرأةُ في طلب العذابِ الدُّنيويِّ نتيجةٌ للضَّلالِ الفكريِّ

وفائدة هذا العطف تعداد جوانب سَفَهِهم، وطَيْشِهم، وعنادهم، وغلوّهم في الاستكبار والكفر، ومع ذلك فقد أمهلهم الله تعالى، وحَلُمَ عليهم، ولم يُعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم إيّاها.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ معنى التَّكرار، لإفادته التَّجدُّدَ والاستمرار، وهذا يدلُّ على وقوع هذا الفعل (أيْ: طلب إيقاع العذاب عاجلًا) من الكافرين مرارًا، ويدلُّ - بالمفهوم - على تكرُّر إنذارهم بالعذاب إن هم أصرّوا على

المعاندة المستمرَّة تُجفِّفُ ماءَ القلبِ وتُعدِمُ العقلَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/435، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/296، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/305، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/285، وابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/131، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/359، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/519، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/514.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/91.

الكفر، كما وقع لأمثالهم من الأمم الخالية الكافرة، والحاصل أنَّهم كلَّما أُنذِروا، وحُذِّروا؛ قالوا: أين عذابُك الَّذي تتوعَّدُنا به؟ فلْتأتِنا به عاجلًا، فلم يزدهم تَكرارُ الإنذار إلّا عنادًا واستكبارًا.

دلالةُ السّين والتّاء في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

طلبُ إنزالِ العذاب برهانُ استحقاقِه

السين والتّاء في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للطَّلب، فالمشركون يطلبون التَّعجيل بالسَّيِّئة قبل الحسنة؛ أيْ: إنَّهم عندما يسمعون البشيرَ النَّذير ﷺ، يستعجلونه بالعقوبات الَّتي تضمَّنها الإنذارُ، بدلَ أن يُحسنوا، ويتركوا ما هم فيه من العنادِ والكفرِ، فيستعجلونها طلبًا متكرِّرًا، وذلك من فساد الفكر وضلال النَّفي، وسيطرة العادة، والمبالغة في إنكار الحقِّ[1].

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الاستعجالُ دليلُ الطَّلبِ الحثيثِ والصَّوتِ الفصيح

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: هو أبلغ في هذا الموطن من (ويسألونك)[2]، ولم يَقُلْ: (ويسألونك العذاب)، كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: 1]، لما فيه من سوء أدب القوم النّابع من تغلُّف قلوبهم بالكفر؛ إذ فيه معنى الاستحثاث، وكأنَّهم يطلبون إيقاع العذاب طلبًا حثيثًا، لا يصدُّهم عنه ورعٌ ولا خوفٌ، فهم يستعجلون على الدَّوام دون كَللٍ أو مَلَلٍ.

نكتة ضمير المُخاطَب في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الحسد يُعمي الأبصارَ ويُدمي القلوبَ

الأصل أنَّ العذاب بيد الله ﷻ، وأنَّ الثَّواب يكون منه ﷻ، وإنَّما جاء النَّبيُّ ﷺ بشيرًا ونذيرًا، فلمّا أنذرهم بطشةَ الله إنْ هم أصرّوا على كفرهم؛ لم يستعجلوا الله سبحانه بها، بل استعجلوا النَّبيَّ ﷺ، وكأنَّه هو الَّذي بيده أمر الثَّواب والعقاب.

وفي هذا دليلٌ على أنَّهم لم يُصدِّقوا أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُرسلٌ من ربِّه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(2) البَسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/271.

مبلِّغٌ عنه، بل رموه ﷺ بالافتراء على اللّه؛ ولذلك استعجلوه هو، (وفي ذلك زيادة تعجُّبٍ من حالهم، وهو كاشفٌ عن استهزائهم).

كما أنَّ استعجالَه دليلُ حسدهم واستكبارهم، فكأنَّهم يقولون: إن كان العذاب سيأتي من جهتك؛ فاستعجله لنا، وهذا في غايةِ المكابرة الصّادرة عن الحسد.

معنى الباء في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

تعدية الفعل لما لم يكن يتعدَّى إليه

الأصل في الفعل ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أنْ يتعدَّى بنفسه إلى مفعول واحد، وهو المطلوب منه تعجيل شيءٍ، فإذا أُريد ذِكْر الأمر المُعجَّل عُدي إليه بالباء، فالباء في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ لتعدية الفعل إلى ما لم يكن يتعدَّى إليه[1].

معنى التَّعريفِ في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

عـادةُ المشركين مع عذابِ الآخرة الإنـكـارُ، ومع عــذابِ الـدُّنـيـا الاستعجالُ

التَّعريف هاهنا للعهد الذِّهنيّ، ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُهدِّد الكافرين المكذِّبين تارةً بعذاب القيامة، وتارةً بعذاب الدُّنيا، والقومُ كلَّما هدَّدهم بعذاب القيامة؛ أنكروا القيامةَ والبعثَ والنُّشورَ، وكلَّما هدَّدهم بعذاب الدُّنيا؛ استعجلوه[2]. فالسَّيِّئة هاهنا هي العقوبة الَّتي هُدِّدوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيبًا[3].

فكأنَّه قال لهم: احذروا أن يحلَّ بكم مثلما حلَّ بمَن قبلكم ممَّن خُسِفَ بهم، ومَن أُغرقوا، ومَن زُلزِلوا، ومَن أخذته الصَّيحة، فلمّا سمعوا ذلك منه؛ قالوا له: ائتنا بهذا العذاب الَّذي تتوعَّدنا به، فأمطِر علينا حجارةً من السَّماء، أو اخسف بنا الأرض كما تقول! ولا شكَّ أنَّ في هذا ما فيه من العتوِّ والاستكبار، فبدلًا من أن يفزعوا، ويمتلئوا رعبًا من سماع ما حلَّ بالسّابقين إذا بهم - لفرط كفرهم - يقولون: نستعجلك هذا الَّذي توعَّدتنا به دون إبطاءٍ!.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(2) ابن عادل، اللّباب: 11/253.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.

سرُّ التَّعبير في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

السَّيِّئة تسوءُ السّامعين وتُنادي على غفلةِ المستعجلين

السَّيِّئة هي ما يسوء في ذات نفسه، وهي هنا بمعنى العقوبة والعذاب، أيْ: إنَّهم سألوا من الآيات ما فيه عذاب بسوء[1]، وإنما سُمي العذابُ سيِّئةً؛ لأنَّه يَسوؤهم ويُؤذيهم[2].

والسِّرُّ في إيثارها دون معانيها الَّتي فُسِّرت بها (كالعقوبة والعذاب): هو بيان جهل المكذِّبين الكافرين، فلو علموا أنَّ هذا الّذي يستعجلون به، ويطلبونه مستهزئين بالوعيد والمتوعّد به، - لو علموا أنَّه سيسوؤهم - ؛ لما أقدموا على طلبه فضلًا عن التَّكذيب به، فقد جمعوا مع الكفرِ والعنادِ وسوءِ الأدبِ الحماقةَ الَّتي أعيت مَن يداويها.

كما أنَّ لفظ السَّيئة يسوءُ السّامعين، ويُنادي على غفلةِ المستعجلين، ويأخذ بصمةَ الاعتراف بكَلالةِ الرَّأي وهشاشة الفكر من المستعجلين.

نكتةُ الإفراد في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

اشتمالُ اللَّفظِ على أنواعِ العذابِ الَّذي أُنذروه عبارةً أو إشارةً

أُفردت السَّيِّئة لتشمل كلَّ ما يصحُّ أنْ يقع تحتها من معانٍ، كما هو الحال في أسماء الأجناس، وقد أفاد هذا الإفراد نكتةً لطيفةً، وهي الدَّلالة على تكرُّر الإنذار وتنوُّعه، فكلَّما أنذرهم النَّبيُّ ﷺ عقوبةً من العقوبات؛ استعجلوها بعينها، فإذا قال لهم مَثلًا: إني أخاف عليكم أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح؛ قالوا: إذًا فأغرِقْنا إن كنتَ صادقًا فيما تدَّعي، وإذا قال لهم: اذكروا ما حدث لقوم عاد؛ قالوا له: إذًا فأرسل علينا ريحًا، كما أُرسل عليهم وهكذا.

دلالةُ الظَّرفِ في ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾:

اختيار السَّيِّئة دون الحسنةِ أمارةُ السَّخافةِ ومَوضِعُ الحماقة

إنَّ قبليَّة السَّيِّئة قبليَّةٌ اعتباريَّة، وليست قبليَّة ظرفيَّة: زمنيَّة أو مكانيَّة، بل المعنى: أنَّهم يختارون السَّيِّئة دون الحسنة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/11، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.

فهُم لا يقصدون أن تأتي السَّيِّئة أوَّلًا، ثمَّ تتبعها الحسنة، بل إنَّهم يُقدِّمون السَّيِّئة على الحسنة، وهذا من أعجب العجب! وفيه رائحةُ التَّهكُّم بالقوم.

فالمعنى: إنكار جعْلِهم تأخيرَ العذابِ أمارةً على كذب الوعيد به، وأنَّ الأوْلى بهم أنْ يجعلوا امتداد السَّلامة أمارةً على إمهال الله إيّاهم، فيتَّقوا حلول العذاب، أيْ: لِمَ تبقون على التَّكذيب منتظرين حلول العذاب؟ وكان الأجدر بكم أن تُبادروا بالتَّصديق منتظرين عدم حلول العذاب بالمرَّة[1]، فما أسرع سَيْرَكم في سبيل الهلَكَة!

معنى ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ ودلالة تعريفها:

الحسنة: هي ما يَحسُن في ذات نفسه[2]، وهي هنا بمعنى: الرَّخاء والعافية[3]، أو بمعنى: الإيمان الَّذي يُرجَى به الأمان والحسنات، والَّذي يمتاز به الخبيث من الطَّيِّب[4].

المكذِّبون يرغبون في كلِّ سيِّئة، ويرغبون عن كلِّ حسنة

وقد جاءت ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ هنا مُعرَّفةً لتشمل كلَّ ما تصدُق عليه من معاني العافية والرَّخاء والإيمان والحياة الطَّيِّبة، فتعريفها - إذًا - مختلفٌ في دلالته عن تعريف السَّيِّئة؛ إذ كان تعريف السَّيِّئة للعهد الذِّهنيّ، ومعناها العقوبة المعيَّنة الَّتي هُدِّدوا بها، أمّا تعريف الحسنة؛ فلشمول كلِّ حسنة، وهذا يدلُّ على فجور القوم وعُتوِّهم وقساوة قلوبهم؛ حيث إنَّهم يستعجلون بعقوبة عظيمة، ولا يرغبون في أيِّ حسنة كانت.

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة في الآية:

أعمَت مكابرةُ الكافرين قلوبَهم عن أن ترى ما حلَّ بأمثالهم

جاءت الجملة الكريمة ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ في موضع الحال لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أيْ: يستعجلونك بذلك مُستهزئين بإنذارك، مُنكرين لوقوع ما أنذرتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/280.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/296، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 15/215.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 3/1021، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/284.

إيّاه، والحال أنَّه قد مضت العقوبات الفاضحة النّازلة على أمثالهم من المُكذِّبين المستهزئين[1].

وهو محلُّ زيادة التَّعجيب؛ لأنَّ ذلك قد يُعذَرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المُعذَّبة مثل عاد وثمود[2]، ولو كان ذلك لم ينزل قَطُّ؛ لكانوا أعذر[3].

فهُم مع علمهم بما حلَّ بغيرهم من مُكذِّبي الرُّسل في الأمم السّالفة، ومرورهم على ديارهم وآثارهم، مع هذا كلِّه يستعجلون النَّبيَّ ﷺ بالسَّيِّئة! وهذا يدلُّ على سُخْف عقولهم؛ إذ يستعجلون بالعذاب والحالة هذه، ولكنَّهم لا يعتبرون[4].

نكتةُ اقترانِ (قد) مع الماضي في ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾:

تـأكيـدُ الأدلَّـةِ منهجُ القرآنِ في إلـزامِ أهل البُهتان

أفاد اقتران حرف التَّحقيق (قد) مع الفعل الماضي ﴿خَلَتْ﴾ مزيدًا من التَّوكيد الَّذي يؤديه كلُّ واحد منهما مستقلًّا، فباجتماعهما زاد صوت قَرع المؤكِّدات وضوحًا وبيانًا لمَن كان له قلب، أو ألقى السَّمع وهو شهيد، فحرف (قد) أكَّد الدليلَ، وهو مجيءُ العذابِ لِمَن قبلهم، فقد قدَّم اللّه إليهم بالوعيد، وبعث إليهم النُّذُر بالبشارة والتَّهديد، وساق لهم أسباب التَّحقيق والتَّأكيد، فما زادهم إلّا نفورًا، وما اكتسَوا من تأخُّر نزول العذاب إلّا غرورًا، وفي هذا بيانٌ لما امتلؤوا به من الكِبر والبَطَر، بقدر ما خَلَت قلوبهم من الاعتبار بمَن غَبَر.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَتْ﴾:

الـخُـلـوُّ مُـضي ماحـقٌ لا يـتركُ بشرًا أو أثرًا

تدور معاني الخُلوِّ حول الفراغ والتَّعري: تعري الشَّيْء من الشَّيْء،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/296.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/353.

وفراغ الحيّز من الشَّيء الَّذي كان يملؤه[1]، وتدور معاني المُضي حول النَّفاذ والمرور[2].

ولمّا كان معنى الآية الإنكارَ على القوم المُخاطَبين استعجالَهم بالعذاب، دون أن يعتبروا بما حلَّ بالأقوام السّابقين الَّذين استأصلهم العذاب لكُفرهم وعنادِهم؛ كان التَّعبير بالفعل ﴿خَلَتْ﴾ أبلغ في هذا الموضع من مرادفاته.

ذلك أنَّه يدلُّ - بالنَّظر إلى أصل معناه الَّذي وُضع له - على الإهلاك المُستأصِل الّذي ترك الديار خاليةً من أهلها الَّذين كانوا يشغلونها، كما قال تعالى في موضعٍ آخر: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النَّمل: 52].

فالحاصل أنَّ المَثُلات من العقوبات المستأصِلات قد ذهبت بمَن نزلت بهم حتَّى أخلَت منهم مساكنَهم وديارَهم، فأصبحَتْ ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: 24].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالته في ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾:

مضت سُنَّة الله في الغابرين، من قبل أن تبدأ حياةُ اللّاحقين

يفيد حرف الجرّ ﴿مِن﴾ معنى ابتداء الغاية الَّذي هو أصل معانيها[3]، ويأتي كذلك لابتداء الغاية وانتهائها[4]، أيْ: إنَّ عقوبات الأمم السّابقة قد نزلت بهم، وانتهت من قبل أن يأتي هؤلاء المخاطَبون.

وقد دلَّ دخول حرف الجرّ ﴿مِن﴾ على الظَّرف (قبل) على توكيد المعنى، وقد تآزر مع المؤكّدات الَّتي شُحِنت بها الآية الكريمة مُتمثّلة في جملة الحال، وحرف التَّحقيق (قد)، والفعل الماضي (خلت)، وهذا الحشد من المؤكّدات في جملة قليلة المبنى يَشي بضراوة الإنكار الَّذي شنَّه المخاطَبون على الإنذار والوعيد الَّذي كان على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/590.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 4/2088.
(3) ابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 429، والمُرَاديّ، الجَنَى الدَّاني، ص: 315.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/511، والمالقيّ، رصف المباني، ص: 388.

لسان الصّادق المصدوق ﷺ، فاقتضى أن يُقابَل ذلك بمزيد من التَّوكيد لإعذارهم بعد إنذارهم، ولإقامة الحُجَّة عليهم، كما هو المعهود في مخاطبة المُخاطَب المُنكِر.

والأصل أنَّ الظُّروف الَّتي ليست بمُتمكِّنة مثل: (قبل)، و(بعد)، و(عند) ونحوها؛ حكمُها ألّا يدخل عليها شيْء من حروف الجرّ؛ لعدم تمكُّنها وقلَّة استعمالها استعمال الأسماء، وإنَّما أجازوا دخول (مِن) عليها توكيدًا لمعناها وتقويةً له[1].

سرُّ التَّعبير بمُفردةِ ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾:

المَثُلات هي العقوبات المُنكِّلات الَّتي تجعل الإنسان مثلًا يتمثَّل به، ومنه التَّمثيل بالقتلَى، ومنه المُثلة بالعبيد، وأصل هذا الحرف من المِثْل الَّذي هو الشَّبه، ولمّا كان الأصل أن يكون العقاب مُشابهًا للمُعاقَب ومماثلًا له لا جَرَم سُمي بهذا الاسم.

المُثُلاتُ عقوبةُ الله الَّتي تُضرَبُ بها الأمثال

فالحاصل أنَّه عُبِّر عن العقوبة بالمثلة لما بين العقاب والمعاقَب عليه من المماثلة؛ ولأنَّ الجناية سبب لأنْ يُعاقَب الجاني بمثل ما جناه، كما سُمي جزاءُ السَّيِّئة سيِّئة؛ لأنَّه مُسبَّب عنها ومماثل لها، أو هي مأخوذة من المثال بمعنى القصاص، يُقال: أمثلْتُ الرَّجُل من صاحبه، وأقصصته بمعنًى واحد، أو هي من المَثَل المضروب لعِظَمها[2].

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

الواو عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة الكريمة على الجملة الحاليَّة السّابقة عليها ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾، وهذا كشفٌ لغرورهم بتأخير العذاب عنهم؛ لأنَّهم لمّا استهزؤوا بالنَّبيّ ﷺ، وتعرَّضوا لسؤال حلول العذاب بهم، ورأوا أنَّه لم يُعجَّل لهم

الحليم لا يُعاجِل بالعقاب، بل يُمهل المذنبين عسى أن يكون مَتابٌ

(1) السَّخاويّ، سفر السَّعادة: 2/844.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/514، وابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 3/296، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12، والطيبيّ، فتوح الغيب: 8/466، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.

حلولُه؛ اعترتهم ضراوةٌ بالتَّكذيب، وحسِبوا تأخير العذاب عجزًا من المتوعِّد، وكذَّبوا بالنَّبيِّ ﷺ، وهم يجهلون أنَّ الله حليم يُمهل عباده لعلَّهم يرجعون، فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقَّتة، وهي التَّجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجَل[1].

ويصحُّ صناعةً أن تكون الواو حاليَّة، وتكون جملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ حاليَّةً بالأصالة، وفي هذا ما فيه من دلالات الرَّحمة والحلم العظيم من الله الكريم بعباده حتَّى المستكبرين منهم.

بلاغةُ أدوات التَّوكيد في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو﴾:

أُكِّدت هذه الجملة الكريمة بمؤكِّدات عدَّةٍ، منها: الجملة الاسميَّة، ومنها حرف التَّوكيد (إنَّ)، ومنها لام التَّوكيد المُزحلَقة الواقعة في خبر (إنَّ)، ومنها التَّعبير بالاسم الدّالِّ على المصاحبة (ذو)، وقد أفاد حشد هذه المؤكِّدات إزالةَ كلِّ شكٍّ أو لَبْسٍ عند الكافر المُكذِّب الَّذي تحدِّثه نفسه بالتَّوبة وبالإسلام، فجاءت الآية تفتح ذراعَيها لاحتضان كلِّ تائب على ما كان منه، فهي بليغة في عدم تيئيس أحد - كائنًا مَن كان - من رحمة الله تعالى، وهي - في الوقت نفسه - بليغة في الإعذار لِمَن أصرَّ - بعد كلِّ هذا - على الكفر والعناد.

مغفرة الله واسعة، وظلالها وارفة، ولا يخرج من دوحتها إلّا محروم

نكتةُ إيثار عنوان الرُّبوبيَّة على الألوهيَّة:

يُلاحظ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ أنَّه ﷻ عبَّر بلفظِ الرَّبِّ في صحبة المغفرة، وشِدَّة العقاب، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ذلك من مقتضيات الرُّبوبيَّة، فهو يُهذِّب عبيده بالإنذار بشِدَّة العقاب، ويفتَح باب التَّوبة من غير أنْ يُقَنِّط العُصاة من رحمته[2].

فتْح باب التَّوبة لئلّا يقنَط عاصٍ من رحمة مولاه

دلالةُ الإضافة في ﴿رَبَّكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ تسلية للنَّبيِّ ﷺ؛

معيَّة الله للحبيب ﷺ تشريفٌ وتخفيف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3901.

إذ كذَّبه قومه، واستعجلوا عذاب الله تعالى مستهزئين مستكبرين، وهو ﷺ الحريصُ على إيمانهم، الباخع نفسه أسفًا على آثارهم؛ فجاء لفظ (الرَّبّ) - الذي يحمل بين أحرفه دلالات المعيَّة والرِّعاية، والحفظ والعنايَة - مضافًا إلى ضمير المُخاطَب العائد على أشرف الخلق ﷺ، ففي الخطاب ظلال الأُنس والملاطفة، وفي الإضافة دلائل التَّشريف والرِّفعة، وفي الرُّبوبيَّة معاني الرَّحمة والتَّدبير، وذلك حتى لا يحزن النَّبيُّ ﷺ أو يضيق صدره بما يقولون.

سرُّ إضافة ﴿لَذُو﴾ إلى ﴿مَغْفِرَةٍ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿لَذُو﴾ يعني: الصّاحب، وكان في الصُّحبة معنى الملازمة، ولمّا كان لفظ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ قد جاء على صورة المصدر، حيث معنى الفعل مُجرَّد عن الزَّمن للدَّلالة على الدَّيمومة والاستمرار، وجاء مُنكَّرًا لإفادة معنى التَّعظيم، لمّا كان ذلك كذلك؛ فقد تجلَّى سرُّ إضافة ﴿لَذُو﴾ إلى الاسم الظّاهر ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وهو إفادة معنى التَّوكيد لمغفرة ربِّ العالمين لكلِّ ذنب وإنْ عظم، وهذا يتناسب مع سياق الآية الَّتي يُذكر فيها استعجال عتاة المشركين بالعذاب العظيم استخفافًا واستهزاءً، فإنَّ الَّذي يرسخُ في نفس المخاطَبِ في عدمِ إيقاع العقوبة، وإنزال العذاب، هو هذه المغفرة الرّاسخة، وهذا الحلم العظيم، وقد أفاد اجتماعُ هذه المؤكِّدات إظهارَ شدَّة رحمة الله بعباده في الدُّنيا[1]، وأنَّ المغفرة من صفات الرُّبوبيَّة ومقتضياتها.

لـــولا عـظـيـم مـغـفـرة الـلـه المُـلازمــة لـه؛ لـنـزل الـعـذاب، وتحقَّق العقاب

نكتةُ استعمال صفة المغفرة في الآية:

أوثر التَّعبير بصفة المغفرة دون الرَّحمة في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ سياق الآية يدلُّ على أنَّ المُراد بالمغفرة هنا التَّجاوزُ عن المشركين في الدُّنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجَلٍ أرادَهُ الله أو إلى يوم الحساب، وأنَّ المُراد بالعقاب في قوله: ﴿وَإِنَّ

تأجيلُ العقوبةِ مغفرةٌ يُرجى من ورائها الاهتداء والارتداع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.

رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ضِدُّ تلك المغفرة، وهو العقاب المُؤجَّل في الدُّنيا أو عقاب يوم الحساب[1]، فإنَّ مقتضى صنيعِ المشركين هو العقوبة، فتأجيلُ العقوبةِ وإنساء العذاب، هو مغفرةٌ يُرجى من ورائها الاهتداءُ والارتداعُ.

كما أنَّه من المعلوم أنَّ المغفرة في الدُّنيا تشمل كلَّ الذُّنوب - وعلى رأسها الشِّرك - إن تاب المشرك وآمن قبل أن يحضره الموت، وعليه فإنَّ إطلاق المغفرة (بمعنى قبول التَّوبة، ومحو الذُّنوب) متضمِّنٌ لمعنى الرَّحمة؛ إذ هو من لوازمها، وكذلك تفسير المغفرة بمعنى (عدم المعاجلة بالعقوبة عسى أن يتوب المُنذَرون). أمّا المغفرة بمعنى (تأخير العقوبة إلى الآخرة)؛ فهذا استدراج للكافرين المعاندين، ولا يتضمَّن الرَّحمة، بل هم قد خرجوا عن مِظلَّتها غيرِ متناهيةِ الفُيوء.

فالحاصل أنَّ في التَّعبير بالمغفرة مزيدَ دلالة - في هذا السياق - عن الرَّحمة؛ فالرَّحمةُ هي سببُ المغفرةِ، فبذِكْر المغفرة صراحةً؛ ضُمِّنت الرّحمةُ إشارةً، ولذلك أوثرت دونها.

معنى لام التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

اللّام للعهديّة، والمُراد بالنّاس إمّا المعهودون، وهم المستعجِلون المذكورون قبلُ، أو الجنس دلالةً على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم[2]، والأوفقُ أنَّ المُرادَ كلُّ من يستعجل العذابَ، ويدخل فيهم المعهودون دخولًا أوَّليًّا.

مغفرةُ الله تعالى ورحمتُه أعلى من ظلمِ العبادِ ومعصيتهم

معنى حرف الاستعلاء ودلالته في ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في هذا الموضع بمعنى (مع)، وهي ومجرورها في محلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

نصبٍ على الحال؛ أيّ: حال كونهم ظالمين[1]؛ والمعنى: أنَّ الله تعالى لغفور للنّاس مع كونهم ظالمين[2].

وقد أوثر التّعبير بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (مع) للدّلالة على أنَّ ظلم النّاس يقتضي العقوبة، ولكنَّ رحمة الله سبحانه قد عَلَت على استحقاقهم هذه العقوبة، وهكذا أدَّى الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ معنى (مع)، وزاد عليه؛ فإنَّ المعيَّة لا تقتضي العُلوَّ، فلو قلنا: (مع ظلمهم)؛ فالمعنى: أنَّ المغفرة موجودة مع الظُّلم مجرَّد معيَّة، أمّا قول الحقّ سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ فإنَّه يعني: أنَّ المغفرة علت على الظُّلم، فالظُّلم يتطلَّبُ العقاب، ولكنَّ رحمة الله ومغفرته علت على أنْ تُعامِل الظّالم بما يستحقُّ، فرحمة الله تعالى سبقت غضبه، وهي تعلو ظلم العباد[3].

معنى الظُّلم ودلالة إضافته في ﴿ظُلْمِهِمْ﴾:

الظُّلم معهودٌ من المشركين، فهو الظُّلم الَّذي يُمارسونه، ويستحقّون به العذاب

الظُّلم في الآية بمعنى: الشِّرك، ومغفرته بمعنى: الإمهال والسَّتر وتأخير العقوبة، أمّا إنْ كانت بمعنى: العفو والصَّفح؛ فهي مقيَّدة بالتَّوبة والإيمان[4]، وسياق الآية يدلُّ على أنَّ المُراد بالمغفرة هنا: التَّجاوز عن المشركين في الدُّنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجَلٍ أراده الله، أو إلى يوم الحساب، وأنَّ المُراد بالعقاب في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ضدُّ تلك المغفرة، وهو العقاب المؤجَّل في الدُّنيا، أو عقاب يوم الحساب، فمحمَل الظُّلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشِّرك، ويجوز أن يُحمَل الظُّلم على ارتكاب الذُّنوب بقرينة السياق[5].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/81.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 12/7222، 13/8282، 15/9030.
(4) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/218، والخازن، لباب التَّأويل: 3/6.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.

ودلالةُ إضافته إلى الضَّمير العائد على الظّالمين؛ لبيانِ أنَّه ظلمٌ معروفٌ معهودٌ منهم، فهو الظُّلم الَّذي يمارسونه ويستحقّون لأجلِه العذاب.

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

تـكـرار الإنـذار مـبـالـغـةٌ في الإعذار

الواو: واو العطف، حيث عطفت جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ لأنّ الذي هم فيه من ضراوة التّكذيب مع سعة النّعماء عليهم أرخى لهم حَبْلَ الغرور، فباغتتْهم الآية لتبيّنَ الّذي هم فيه من جهل، ولتكشف ما بهم من غرور بتأخير العذاب عنهم، وقد تعرَّضوا لسؤال حلول العذاب بهم، وحسِبوا تأخير العذاب عجزًا من المتوعِّد، فقابل تعالى بينَ إمهالِه لهم مع اغترارهم، وبين نكاله بهم على غفلتهم[1].

فنُّ التَّقابلِ في الآية الكريمة:

نـــذارةٌ بـعـد بِشارةٍ، وترغيبٌ بعد ترغيبٍ، فلا يغترُّ مُذنبٌ ولا يقنط عاصٍ

قوبل بين الجملتَيْن الكريمتيْن في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لتحقيق معنى الرَّجاء والخوف، فقد رجَّى سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ثُمَّ خوَّف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2]، فجمع بين الوعد والوعيد؛ ليعظُم رجاءُ النّاس في فضله، ويشتدَّ خوفهم من عقابه وعذابه الشَّديد؛ لأنَّ مطامع العقلاء محصورةٌ في جلب النَّفع ودفع الضُّرِّ، فاجتماع الخوف والطَّمع أدعى للطّاعة[3].

ومن لطائف التَّعبير أنَّ كلتا الجملتيْن المتقابلتيْن قد أُكِّدتا بحرف التَّوكيد (إنَّ)، واللّام الدّاخلة على خَبَرِه، وجاء في المغفرة بلفظ ﴿لَذُو﴾ الدّالِّ على الملازمة مضافًا إليه المصدر ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ منكَّرًا، وجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/361.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/92.

في العقاب بصيغة المبالغة ﴿لَشَدِيدُ﴾ مضافًا إليها المصدر ﴿ٱلْعِقَابِ﴾ معرَّفًا، وذُكر مع المغفرة لفظ ﴿لِّلنَّاسِ﴾، ولم يُذكر مع العقاب.

نكتةُ التقديم في الآية الكريمة:

قُدِّم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ فإنَّ كفَّة التَّوكيد لتُرجِّح جملة المغفرة، وهذا لأنَّ رحمة الله تعالى أوسع من عقابه، وقد سبقت غضبه ﷻ، فتبارك مِن إله حليم رحيم؛ لذلك قُدِّمت الجملة المقتضية للمغفرة على الجملة الَّتي ذكرت العقاب.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أُعيد لفظ الرَّبّ مضافًا إلى ضمير المخاطَب دون أن يُعوَّض عن هذا اللَّفظ بضمير، فلم يَقُلْ: وإنَّه لشديد العقاب، لأمورٍ:

إحاطة الحبيب النَّبيّ ﷺ بظلال المعيَّة، وتوكيد مغفرة الله للبريَّة

أوَّلًا: المبالغة في تسلية النَّبيّ ﷺ، ولزيادة الإيناس في خطابه ﷺ حيث لاقى مِن قومه ما لاقى من الكفر والاستهزاء والعتوّ والاستكبار، والكفر بما يدعوهم إليه، والسُّخرية ممّا يحذِّرهم منه، وهو ﷺ الحريص عليهم، وعلى هدايتهم ونجاتهم، فلمّا أظهر؛ أضاف اللَّفظَ لضمير المخاطَب، ولو قال: (وإنَّه)؛ لَما روعيت هذه النُّكتة.

ثانيًا: إظهار لفظ الرُّبوبيَّة يومئ إلى استقلال كلٍّ جملةٍ عن الأخرى؛ لتذهب كلُّ جملةٍ مَثلًا سائرًا، وهذا من لطيف التَّعبير القرآنيِّ.

ثالثًا: فيه مزيد توكيد لمغفرة الله تعالى لكلِّ ذنبٍ، وعدم ردِّه ﷻ توبةَ عبد، وهذا مُستفاد من الظِّلال الدِّلاليَّة للفظ (الرَّبّ).

المغفرة مَنوطةٌ بالاستغفار، والعقاب شديدٌ للجاحدين الفجّار

فنُّ الاحتراس في الآية الكريمة:

جاء الاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في تذييل الآية الَّتي يُذكَر فيها استعجالُ الكافرين بالعذابِ والعقوبات،

ومغفرةُ الله تعالى لكلِّ الذُّنوب والسَّيِّئات؛ لتحقيق الوعيد بهؤلاء المعاندين، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، ففيه إشارة إلى أنَّ ذلك إمهال لا إهمال[1]؛ لئلّا يحسبوا أنَّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة، تعريضًا بأنَّ العقاب حالٌّ بهم مِن بعد[2]. ففي هذا التَّعقيب إيذانٌ بأنَّ الله تعالى بعدَ الإمهال يعاقبهم عقابًا شديدًا[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

تخويف العباد من التّمادي في العناد، فالعقاب شديدٌ، والوعيد أكيدٌ

أصل معنى الشِّدَّة هو القوَّة، وهذا مناسب لسياق الآية الَّتي جاءت لبيان استخفاف المشركين بإنذار النَّبيِّ ﷺ إيّاهم، واستعجالهم إيّاه ﷻ بإنزال العقوبات عليهم، كما نزلت بمَن قبلَهم، فاستخفافهم هذا يدلُّ على عدم خوفهم، وكأنَّهم رأوا في أنفسهم قوَّةً يستطيعون بها درْأ العذاب عن أنفسهم، فجاءت الآية مُحذِّرة: ألا إنَّ عقاب الله أليم شديد.

ولأنَّ هذه الجملة الكريمة سُبقت ببيان عظيم رحمة الله تعالى بعباده، فقد ناسب ألّا يُعبَّر هاهنا بسرعة العقاب؛ لأنَّ ذلك يتنافى مع الإمهال المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ولكنَّ الأنسب هو التَّعبير بشدَّة العقاب لتُقابلَ واسع الرَّحمة.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْعِقَابِ﴾:

العقاب عامٌّ يشمل كلَّ عذاب في الدُّنيا والآخرة

المُراد بالعقاب في هذا الموطن هو ما يُضادُّ المغفرة الَّتي سبقته في نظم الآية، ومعناه: العقاب المؤجَّل في الدُّنيا أو عقاب يوم الحساب[4]، فالمقصود باللّام فيه إرادة الجنس[5]، أيْ: هو ﷻ شديدٌ في عقابه كلِّه، فإذا جاء الأجَلُ الَّذي قدَّرَه لقوم كفروا، أخذهم أخذَ عزيزٍ مُقتدِر.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/94.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 8/468.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

سرُّ استعمال مفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:

الجحود تعقبه مغبَّته، والإيمان تُلازمه ثمرته

تدور معاني العقاب حول اللُّحوق والتَّأخير، أمّا معاني العذاب؛ فتدور حول الإيلام والنَّفاذ[1]، فالعقاب هو ثمرة العمل الَّتي تلحق عامله، وخُصَّ استعمالها بالشَّرِّ، والعذاب هو إيلام الحيِّ وإيجاعه، وعليه فقد يسبق العذابُ العملَ، وقد يعقبه، وقد يخلو عنه، أمّا العقاب؛ فلا يكون إلّا تاليًا للعمل؛ لأنَّه ثمرةٌ مترتّبة عليه.

ومن هنا يظهر سرُّ إيثار التَّعبير بمُفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ دون (العذاب)؛ ذلك أنَّ الآية تُبيّن مدى حِلْم الله تعالى على العُصاة والكافرين، وأنَّه سبحانه لا يُعاجلهم بالعقوبة الَّتي استعجلوا بها، بل يُمهلهم حتَّى يتوبوا، فإنْ أصرّوا على غيّهم وعنادهم وفجورهم، فإنَّهم سيجنون ثمرة كفرهم عقابًا استحقّوا أشدَّه.

فضلًا عن أنَّ مفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ - بالنَّظر إلى أصل معناها الَّذي وُضعت له - تدلُّ على الإمهال والمماثلة، أمّا الإمهال؛ فهو مأخوذ من معنى التَّأخير الموجود في معنى الجَذر (عقب)، وأمّا المماثلة؛ فمستفادَة من معنى (اللّحوق) الَّذي تدلُّ عليه معاني مُشتقّات هذا الجَذر.

فالحاصل أنَّ الله تعالى أمهل الكافرين المستعجلين نزولَ العذاب، وأخَّر عقوبتهم، وحذَّرهم من أن يلحقوا بسابقيهم فيما حلَّ بهم، وعلى هذا كلّه قد دلَّت مفردة العقاب بظلالها الدِّلاليَّة، وهي ظلال لا توجَد في غيرها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العقاب والعذاب:

العقاب يدلُّ على تأخير العذاب، والإمهال قبل حلوله

العذاب: الإيجاع الشَّديد، وأصله من المَنع، وسُمّيت العقوبة والإيلام عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه[2]. والعقاب

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب، عقب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1428، 3/1496.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/42.

فيه معنى التَّأخير، ومجيء العذاب بعد إمهالٍ[1]، ويكون بعقب الذَّنب واكتسابه[2]؛ فتقول: عذَّب الرَّجلُ الغلامَ؛ إذا فعل ذنبًا أو عملًا يَدفع الرَّجلَ إلى تعذيبه، أو لم يفعل، ولا تقول: عاقبه؛ إلا إذا ارتكب إثمًا أو عملًا يدفعه إلى عقابه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/102.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»